ثنائيّة الروحانيّة والتجديد
لدى عَلَمين عَرَبيّين
لَمَعا في عصر النهضة الحديث

بسمة أحمد صدقي الدجاني(*)

أستاذة اللغة العربيّة وآدابها، مركز اللغات بالجامعة الأردنيّة

كلّية الدراسات الإسلاميّة، جامعة حمد بن خليفة.

مُلخّص

شَهِدَ القرنُ الثامِن عَشر وِلادةَ عَلمين عَربيين كان لهما وَزنُهما في زمانِهما، حيث تَفاعَلا مع الأحداثِ التاريخيّةِ والاجتماعيّة التي عاشا فيها، وتركا آثارًا فِكريّة وأدبيّة وبَصْمات مُهمّة؛ مُحمّد بن علي السنوسي وحُسين سليم الدّجاني (كلاهما وُلِدَ عام 1787م ـ ووفاة الأَوّل عام 1859م والثاني عام 1858م).

هما نموذجان عربيّان رائدان أحدُهما مِن المغربِ العربي والآخر مِن بلادِ الشام. وكتب عنهما الرحالةُ الأوروبّيّون أمثال هاملتون[1] وطومسون[2] الإنكليزيّين، و ف. فولني[3]،

(*) البريد الإلكتروني: bdajani@hotmail.com

(1) السير هاري هاميلتون جونستون (1858 ـ 1927) مُستكشف بريطاني، عالِم نَبات وحَيَوانات وفنّان ومسؤول اِستعماريّ. تنقّل على نطاق واسع في أفريقيا وأتقن لغات أفريقيّة كثيرة. وشارك عن كثب في ما سُمّيّ التدافع مِن أجل أفريقيا مِن قِبَل القُوَى الاستعماريّة في القرن التاسع. ونشر 40 كتابًا عن موضوعات أفريقيّة، وعمل مِن عام 1891 إلى 1895 كأوّل قُنصل عام ومُفوّض بريطاني في نياسالاند (ملاوي الآن). موسوعة بريتانيكا.

(2) جوزيف طومسون (1858ـ1895) جيولوجي اسكتلندي وعالِم في الطبيعة، أوّل مُستكشف أوروبي يَدخل الكثير مِن مناطق شرق أفريقيا، وتُعدُّ كتاباته إسهامات بارزة في المعرفة الجغرافيّة وبخاصّة بسِجلّاته ودراساته الاستقصائيّة الدقيقة. وأُطلِقَ اسمه على الغزال الأكثر شيوعًا في شرق أفريقيا؛ غزال طومسون (Eudorcas thomsonii). موسوعة بريتانيكا.

(3) قسطنطين فرانسوا دي شاسيبوف، كونت دي فولني، مؤرّخ وفيلسوف فرنسي (1757 ـ 1820)، جَسَّدَ عمله «الأطلال» فِكر القرن الثامن عشر التاريخي والسياسي العقلاني. موسوعة بريتانيكا.

وإدوار لو كروا[4]، وهنري دوفرييه[5] الفرنسيّين، ورولفس الألماني[6]، والكاتب الإنكليزي إي إي بريتشارد[7]، وجمع بينهما أستاذُ التاريخ المُفكِّر أحمد صدقي الدجاني[8] في دراساتِه التاريخيّة للأعلامِ والإصلاحيين في عَصرِ النهضةِ الحديث.

أمّا مَركزيّة الأُسسِ الروحيّة في فِكْرِهما ومَنهجِهما في مشاريعهما لِتحقيقِ الإصلاحِ والتذكير بالقِيمِ الدينيّة وإنجازِ النهضةِ الحديثة فهي غاية البحث. فبالاعتماد على دراساتِ الراحل أحمد صَدقي الدجاني الشاملة عن الحركةِ السنوسيّة، يعرض البحثُ أبرزَ ملامح شخصيّة مؤسّسِها مُحمّد بن علي السنوسي ودَوره في نشرِ التربيةِ الروحيّة بين أتباعِه وطُلّابه مُجدّدًا إسلاميًّا. وبالارتكازِ على ورقةِ أحمد صدقي الدجاني – أبي الطّيّب ـ عن عَلم مِن يافا في القرنِ الثالث عشر الهجري يسعَى البحثُ إلى الكشفِ عن نموذج رائد إصلاحٍ وتجديد هو حسين سليم الدجاني مُفتي يافا بين عامي 1236هـ و1274هـ الذي نال شهرةً داخليّة أكثر منها خارجيّة في عصرِ النهضة الحديث، بِوصفه مِن ذوي العناية بالتربية الروحيّة والعِلميّة.

Abstract

The year 1787 witnessed the birth of two eminent Arab scholars who left their intellectual and literary marks on the reform currents in the Arab World as well as on Western Orientalism: Muhammad bin Ali al-Sanusi (d. 1859) and Hussein Saleem al-Dajani (d. 1858). Both spearheaded local resistance movements against French occupation at opposite ends of the Arab World and, at the same time, engaged European intellectual currents. They later became the subjects of study of famous Orientalists including the French polymath Constantin de Volney (1757-1820), French explorer Henri Duveyrier (1840-1892), Scottish historian H. A. R. Gibb (1895-1971), and the English anthropologist E. E. Evans-Pritchard (1902-1973).

This paper examines how cultural contact and conflict, especially that springing from European political designs, shaped al-Sanussi and al-Dajani's respective contributions to

(4) إدوار لوكروا كاتب فرنسي صاحب كتاب **الجزار قاهر نابليون** (بيروت: دار الثقافة، [د. ت.]).

(5) هنري دوفيرير (1840 ـ 1892) مُستكشف فرنسي للصحراء الأفريقيّة، ساهم في ملاحظاته عن شعب الطوارق في إثنولوجيا أفريقيا؛ وكانت استكشافاته بين المغرب وتونس عبر المنطقة الواقعة جنوب جبال الأطلس مفيدة في وضع خِطط التوسّع الاستعماريّ الفرنسي، <https://rb.gy/13koy3>.

(6) جيرهارد روهلفس (Rohlfs) (1831 ـ 1896) مُستكشف ألماني اِشتهر برحلاته الدراميّة عبر صحراء شمال أفريقيا كمغامرٍ أكثر منه مُستكشفًا علميًّا، إلّا أنّ روهلفس جمع معلومات جغرافية قيّمة. وعُرِف كأوّل أوروبي عَبَرَ أفريقيا برّا مِن البحر المتوسّط جنوبًا إلى خليج غينيا. موسوعة بريتانيكا.

(7) إي إي إيفانس بريتشارد، السير إدوارد إيفانس بريتشارد (1902 – 1973) أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة الأبرز في إنكلترا، ومعروف على وجه الخصوص بتحقيقاته في الثقافات الأفريقيّة لاستكشافه للأنظمة القطاعيّة. موسوعة بريتانيكا.

(8) أحمد صدقي الدجاني (1936 – 2003) مُفكّر فلسطيني رَفَدَ المكتبة العربيّة بأكثر مِن خمسين كتابًا في التاريخ والفكر السياسي والدراسات المُستقبليّة والتاريخيّة والتأمّلات الإنسانيّة.

Arabic literary and intellectual life in the 18th century. Their lives and work show both the absorption of values associated with the European enlightenment and the assertion of a religious and intellectual identity which resists the European hegemony.

The author builds largely on the work of the eminent Arab scholar, the late Ahmed Sedki Dajani, and his compilations of Arab-European intellectual exchanges about that period. This paper contrasts al-Sanussi and al-Dajani's ideas as expressed in their own words with their significance as presented by European writers. It aims to bring to life a literary era where ideas flowed between Western and Arabic cultures without erasing the power dynamics therein.

أولًا: ما أهمّيّة دِراسة سِيَر الأعلام؟

يعيشُ شَبابُ أُمّتنا العربيّة أحوالًا تاريخيّة يصعبُ فيها الاستقرارُ الهادئ والتجوّلُ التلقائيّ والتأمّلُ الكَوني... فما بين المُحيطِ الأطلنطي والخليجِ العربي تنشأ نِسبةٌ غالبةٌ مِن هؤلاء الشبابِ في ظُروفٍ اقتصاديّة مُرهِقةٍ وتغيّرات سياسيّةٍ مُربكةٍ وتفاعلاتٍ اجتماعيّةٍ مؤلِمةٍ ومناهجَ تربويّةٍ مُحبِطةٍ. وللشبابِ طبيعةٌ استكشافيّة غريزيّة وحاجةٌ إلى العملِ معيشيّة وتساؤلاتٌ عقائديّة وُجوديّة تستدعي العملَ بالأمرِ الإلهي للسعيِّ في الأرضِ والمشي في مَناكبها والحُصولِ على الرزقِ. فمع صُعوبةِ السفرِ والحُصولِ على تأشيراتٍ لِجَمعِ شَملِ أفرادِ الأسرةِ الواحدة، ومُعاناةِ البحثِ عن الوظيفةِ المُناسبةِ لِتكوين الذاتِ وتوفيرِ مُتطلّباتِ جَمعِ شَملِ الزوجين، وانحسارِ الأمنِ والأمانِ في وَطنٍ بِلاده تتصارعُ وتثورُ وتُواجهُ احتلالًا استعماريًّا، يبرزُ دَورُ التربيةِ النفسيّة في الأخذِ بيدِ هذا الجيلِ وإمدادِه بالقُوّةِ اللازمةِ لِتحدّي هذه العقبات الواقعيّة بالتنقيبِ عن القُدراتِ القياديّة بين صُفوفِه وتزويدهم بالأُسسِ البنّاءة، وإقناعهم بقُدرتهم على إحداثِ التغييرِ بالحِكمةِ وبالاستفادةِ مِن تجربةِ الأجداد وبالمَوعظةِ الحسنة.

فاستذكار جَوانب إنسانيّة شبابيّة إيجابيّة في أزمنةٍ سابقةٍ عانَى شَبابُها ما يُعانيه شبابُنا، يُضيء لَهم النفقَ ويَبُثّ فيهم الرغبة لِتَطويرِ الحال، ويدفعهم للبحثِ عن سُبُلِ التغيير، ويَمُدّهم بِما يحتاجونه مِن تغذيّة فِكريّة، فيُشجّعهم على الاستكشافِ لإثباتِ وُجودِهم والسعيّ الجادّ في مناكب هذه الأرضِ الواسعة. لذلك نحن بِحاجةٍ اليوم للتذكير بأولئك الذين يقدرون على فِعلِ الكثير ليكونوا نماذج يُوجّهون إلى طريقِ الإنجازِ وتحسين الأحوالِ العامّة لنتجاوزَ مع الشبابِ وبِهم صُعوباتٍ كثيرةً نُعايشها ونُعاني منها. ولا شكّ أن بين الشباب مَن خَصّه الخالق - سُبحانه وتعالى- بِمَوهبةِ الريادة والقيادة، لكنّهم يحتاجون مَن يُساعدهم بِكشفِها فتتهيّأ لهم الأسبابُ للعمل بها. وتسليطُ الضّوء على نماذج أولئك النّفرِ الذين سطروا في تاريخ الإنسانيّة ما خلّدهم ذِكرًا وسِيرةً يُثري الثّقافةَ العامّة، ويرفعُ مِن أقدارِ النّاشئة. وفيه ثلاثة أغراض حدّدها ابنُ الجوزي في مُقدّمةِ كِتابه عن الأذكياء؛ «الأوّل: معرفة أقدارهم بِذِكرِ أحوالهم.

والثاني: تلقيح ألباب السّامعين إذا كان فيهم نوعُ استعدادٍ لنَيل تلك المَرتبة. وقد ثَبُتَ أن رؤيةَ العاقل، ومُخالطتَه تُفيدُ ذا اللبِّ، فسماع أخبارِه تقومُ مقامَ رؤيته. والثّالث: تأديب المُعجبِ برأيهِ إذا سمع أخبارَ مَن تعسّر عليه لِحاقه»[9].

مِن هذا المُنطلقِ تُساعدُ دِراسةُ الذاكرةِ الثقافيّة في حَياةِ المُجتمعات على دَعم الهُويّة والانتماء لَدَى الشباب، وغرسِ القيم في نُفوسِهم وتحقيقِ التواصل بينهم وبين أسلافهم مِن أبناءِ الحضارة نفسِها مِن جِهةٍ، وبينَ أبناء الثقافاتِ الأخرى مِن جِهةٍ ثانية. وتُحفّزهم على التأمّلِ والأخذِ بالعِبَرِ لتهيئةِ الواقعِ الراهن لأفضل مِنه بثُنائيّةِ الروحانيّة والتّجديد.

ومِن صميمِ الإنسانِ ذاتِه وبفعلِ قُواه الإيجابيّة تتكوّنُ عَوامل التحضّر والارتقاء، وتتجسّدُ ظاهرةُ العمرانَ الإنسانيّ والحضارة. ولِهذا يحفظُ تاريخُ الاجتماعِ الإنساني دَورًا خاصًّا مُتميّزًا للمُثقّفِ والمُثقّفين في مُجتمعاتِهم .. قاموا به ويقومون في عمليةِ بِناء الحضاراتِ الإنسانيّة وتشييدها وازدهارِها[10]. والمُثقّفون هم مِن بني آدم يتميّزون بأنّهم يعلمون، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وهم يكتسبون مِن العِلم عُنصرَي المعرفة الصحيحة والقُوَى العقليّة والروحيّة، وبهذين العُنصرين معًا يوقظون القُوَى الإيجابيّة في المُجتمعِ وِفق تعريف أحمد صدقي الدجاني لَهم. وأضاف قسطنطين زريق[11] إلى تعريفِهم قائلًا: «إن هذه القُوَى الإيجابيّة لا تتيقّظ ولا تفعلُ فعلَها بِصُورةٍ عامّة مُتساوية بين أبناءِ المُجتمع، بل تبرز في أفرادٍ أو في فئاتٍ أكثر مِمّا تبرز في سواهم. هؤلاء الأفراد أو الفئات هم أصحابُ الإبداعِ وصنعة التحضّرِ وطلائع التقدّم. وهم الخميرةُ التي ينبعثُ مِنها الإبداعُ والتّحرّر والتّحضّر إلى ما حولِها، والقيادةُ التي تشقّ للمُجتمعِ طريقَه، وتسيرُ به إلى حَياةٍ أفضل وأرقى»[12].

ولأنّ الأشخاصَ مَظهرٌ مِن المَظاهر التي تتجلّى بها الحضارة، فيكاد يُعبّر عن المظاهر الأخرَى جميعها؛ والتي تتمثّل بـ«الأدوات والمُنتجات والقُدرة التقنيّة» والعادات والفُنون الشعبيّة، والفضائل والقوانين وأنواع التنظيم، والدين، واللغة والكتابة، والآداب والفُنون، والعِلم والفلسفة حسب ما خلُص إليه ـ المُرَبّي النموذجي ـ قسطنطين زريق في دراستِهِ الجامعةِ للحضارة، ولأنّ «لكلِّ حضارةٍ رِجالُها ونساؤها البارزون الذين حفظ التاريخُ ذِكرَهم وسَجّل سِيرَهم، وأولئك الذين غمرتهم الأحداث أو ضاعوا في متاهِ النسيان. وسِيرُ هؤلاء الأشخاص ما وضح منها وما استتر دليلٌ على الحضارة. فإنّ ما تنطوي عليه هذه السِّيرُ مِن

(9) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، **الأذكياء**، اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى (بيروت: مؤسّسة الرسالة، [د. ت.])، المقدّمة، ص 1.

(10) أحمد صدقي الدجاني، **تجديد الفكر استجابة لتحديّات العصر: العلاقة بين المُثقّف ومُجتمعه وحضارته** (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1996)، ص 67.

(11) قسطنطين زريق (1909 – 2000) شيخ المؤرّخين العرب مِن سورية وخلف مؤلّفات بارزة.

(12) الدجاني، المصدر نفسه، ص 68.

دَوافع الاختيار ووُجوه السلوك ومِن الآراء والمُعتقدات ومِن الاتّجاهات والاختيارات، ومِن الفضائل والنقائض، إن هذا كلّه مرآةٌ صادقة للأوضاعِ الحضاريّة التي عاش هؤلاء الأشخاص في كنفِها. ومِن هنا كانت أهمّيّةُ تدوين السير كفنٍّ مِن فنونِ التاريخ»[13].

وقد أوضح ـ مؤسّسُ عِلم الاجتماع الحديث ـ ابنُ خَلدون في **مُقدّمته** قيمةَ دَورِ الإنسانِ بقوله: «اعلمْ أنّ اللهَ اعتمر هذا العالم بخَلقِهِ، وكرَّم بني آدم باستخلافِهم في أرضِه، وبثّهم في نَواحيها لِتَمامِ حِكمتِه، وخالف بين أُمَمِهم وأجيالِهم إظهارًا لآياتِه، فيتعارَفون بالأنسابِ ويختلفون باللغاتِ والألوان، ويتمايزون بالسِّيرِ والمَذاهب والأخلاق»[14]. ثم أضاف في فضلِ دِراسةِ عِلم التاريخ: «اِعلم أن فنَّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب جمُّ الفوائد شريفُ الغايةِ إذ هو يُوقِفُنا على أحوالِ الماضين مِن الأُمم في أخلاقِهم، والأنبياء في سِيَرِهم، والمُلوك في دُولِهم وسياستِهم، حتّى تتمّ فائدةُ الإقتداء في ذلك لِمَن يرومه في أحوالِ الدين والدنيا، فهو مُحتاجٌ إلى مآخذ مُتعدّدةٍ ومعارف مُتنوّعةٍ وحُسن نظرٍ وتثبُّت يُفضيان بصاحبِهما إلى الحقِّ وينكبان به عن المَزَلّات والمغالط»[15].

ويخلص أحمد صدقي الدجاني إلى أهمّيّة ما يقوم به المُثقّفُ في علاقتِه بمُجتمعِه وهو ينشد العُمران والحضارة بإسهامِه في فهم العامّة «للعالَم الحَيّ» الذي يعيشون فيه، ومُستشهدًا بأساس قاعدةِ الحضارة التي عرّفها برونوفسكي[16] بأنّها هي «الكائن الحَيّ» وليس العالم الطبيعي. فما يقوم به المُثقّف مِن استلهامِ أحلامِ الناسِ في مُجتمعِهِ وبَلوَرتها في رؤى تتضمّن أهدافًا يُمكن تحقيقها مُهمٌّ جدًّا[17].

ثانيًا: لماذا هاتان الشخصيّتان؟

لمُحمّد بن علي السنوسي وحُسين سليم الدجاني، أدَوارٌ اجتماعيّة وسياسيّة مؤثّرة وبارزة؛ في مُواجهةِ الفرنسيين في الجزائر في حالةِ الأوّل، وحملة نابليون بونابرت في بلادِ الشام في حالةِ الثاني. ولكلٍّ منهما أدوارٌ تاريخيّة خلّدتهما في البلادِ التي عاشا فيها: فاس وطرابلس الغرب والقاهرة، ومكّة المُكرّمة، ويافا؛ حيث أسّسا لحركاتٍ إصلاحيّة دِينيّة وفِكريّة ساعدت في مُواجهةِ الأحداثِ السياسيّةِ الكبيرة التي عَمَّت البلادَ العربيّة وأوروبا، ثم خلفا مَنهجًا فِكريًّا

(13) انظر: المصدر نفسه، ص 67.

(14) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدّمة** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، [د. ت.])، ص 1.

(15) المصدر نفسه، ص 6.

(16) جاكوب برونوفسكي (1908 – 1974م) عالِمٌ موسوعيّ، مواليد بولندا ثم استقرّ في بريطانيا مؤلّف **ارتقاء الإنسان والعلم والقيم الإنسانيّة وحوار جديد حول أنظمة الكون.**

(17) الدجاني، المصدر نفسه، ص 71.

يستحقّ الدراسةَ بِصِفتِهما عَلمين جمعا ثُنائيّة الروحانيّة والتجديد بين رُوّاد النهضة الحديثة منذ ما يزيد على قرنين مِن الزمان.

واستجابةً لأهدافِ هذه الندوة[18] بِمَوضوعِها الحَيوي، تتهيّأ فُرصةُ استذكارِ مآثرهما والكشفِ عن مَناقبِهما لرفعِ رُوح الشبابِ المعنويّة، والحثِّ على العملِ البنّاء، وتشجيعِ الهِمَم والقُدراتِ الفرديّة في مُجتمعاتِنا في عصرِنا الحاضر الذي نُعاني فيه مِمّا عانى ذاك الجيل وأكثر. ولنتتبّع أثرَ التزكية والتربية في الاتّجاهِ الفكري والسلوكي لرائدي إصلاح وتجديد، منهم المشهور ومنهم مَن بقيت شُهرتُه محدودة.

لذا تأتي دراسة سيرتيهما للكشفِ مِن خلالِها عن أبرز الأحداث التي مَرَّت بالمنطقةِ العربيّة – والتي كان لأوروبا دورٌ فيها- ولتُبرز ظاهرة الإبداع الفردي في المُجتمع وسط الظروف الصعبة. وقد جَمَعَت خُطوطٌ ثلاثة بين شخصيّتَي هذين العَلمين؛ هي: خطّ الفقه وخطّ التصوّف وخطّ العمل العام، والتي لاحَظَها أحمد صدقي الدجاني الذي أوفاهما حقّهما في ما كتبَه عن تلك الحقبةِ التاريخيّة، مُشيرًا إلى أوجُهِ التشابه العامّة بينهما والتي تستحق التأمّل الفكري لتسليطِ الضوءِ على عامِلِ الوِحدةِ الزمنيّة والوِحدةِ الثقافيّة في جُزأين مِن وَطننا العربي تعرّض فيهما أبناؤهما لِظُروفٍ مُتقاربة وعايشا أحداثًا داخليّة وخارجيّة مُتشابهة. وأوصى كأستاذ تاريخ بمزيدٍ مِن الدراسات حولهما وإجراء مُقارناتٍ تتعمّقُ في هذا التشابه بينهما الذي يُبين وِحدة الحياة الفكريّة في المنطقة العربيّة، ويُذكّرالأجيال اللاحقة بطبيعةِ الانبعاثِ الذي عاشته أمّتُنا في القرنِ الثالث عشر الهجري- التاسع عشر ميلادي.

ورغم أنّ العَلَمَيْن تعاصرا في رحلةِ حياتهما وسكنا مدينتَي القاهرة ومكّة المكرّمة دون أن يلتقيا، إلّا أنّ كليهما تتلمذ على أفكارِ شيخٍ مِن عائلةِ الآخر. فيُورد ابنُ السنوسي في كتابِه **السلسبيل المُعين في الطرائق الأربعين** اسمَ أحمد بن مُحمّد الدجاني في كثيرٍ مِن المرّات آخذًا عنه عددًا مِن الطُّرقِ الصوفيّة[19]. ويشرح الشيخ حُسين الدجاني «صُغرَى الصُّغرَى

(18) دعوة ندوة الأسس الروحيّة في فكر روّاد الإصلاح، كلّيّة الدراسات الإسلاميّة بجامعة حمد بن خليفة: المحور الثاني «مركزيّة التربية الروحيّة في فِكر روّاد الإصلاح والتجديد، الذي يهدف إلى توضيح مركزيّة الأسس الروحيّة في فكرهم، وتسليط الضوء على اهتمامِهم بهذا المنحَى الذي مثّل عندهم ما يُمكن أن نُسميّه رُوح النهضة، مِن خلال دراسة شموليّة لعددٍ مِن النماذج تُبيّن عِنايتهم بذلك نظريّا وعمليّا، وتكشف عن مَناهجهم في التعاطي معه، ومكانته في مشاريعهم لتحقيق الإصلاح وتجديد الدين وإنجاز النهضة».

(19) أحمد صدقي الدجاني، **الحركة السنوسيّة: نشأتها ونموّها في القرن التاسع عشر** (بيروت: دار لبنان، 1967)، ص 67.

للسنوسي»[20] في العقائد، وينظم مَنظومةً في العقائد السنّيّة سمّاها «تُحفة المُريد» جمع بها بين الجَوهرة والسنوسيّة وذيّلها بِخاتمةٍ في التّصوّفِ[21].

ويُفسّر أحمد صدقي الدجاني سببَ تعمّقه في دِراسةِ تاريخ مؤسّس الحركة السنوسيّة قائلًا: «لقد دفعني شُعوري بأهمّيّةِ دِراسةِ الحركاتِ الإصلاحيّة إلى اختيارِ الحركةِ السنوسيّة مَوضوعًا للبحثِ لدراسةِ الماجستير في جامعةِ القاهرة. ولعلّ ما ساعد على هذا الاختيار بالذات أنّني لظُروفِ العمل أقمْتُ في ليبيا فترةً مِن الزمنِ ممّا أتاح لي فرصةَ الاطلاعِ على قدرٍ كبيرٍ مِن المعلوماتِ حول الحركةِ، ودراسةَ المَوطن الذي كان مَركزًا لَها والتفاعلَ مع أبنائه. يُضافُ إلى ذلك مُلاحظتي قِلّةُ ما كُتِبَ عن السَّنوسيةِ، وشُعوري بِضَرورةِ سَدِّ ثَغرةٍ في هذا النَّقْصِ. وقد شجَّعَني الأستاذُ المُشْرف محمّد أنيس[22] على هذا الاختيار. وكنتُ لاحظتُ أثناء عملي سُكوتَ المؤرّخين عن تاريخِ ابنِ السنوسي في بعضِ مَراحل حياتِه الأولى، وتخبّط بعضِهم في تحديدِ تواريخ تَنَقُّلاتِهِ، فحرصتُ على مُحاولةِ تَوضيحِ مُخطّطِ تاريخِهِ، واستفدتُ كثيرًا في مُحاولتي هذه وفي تَوضيحِ نِقاطٍ أُخرَى مِن حديثٍ مُمتدٍ مع ملك ليبيا إدريس الأوّل، حيث تكرّم وأجاب عن أسئلتي، وأمدَّني بمجموعةِ كتبِ جدِّه المطبوعة»[23].

فينهض البحثُ على محاور مُستقاةٍ مِن كتاباتِ **أبي الطيّب** الساعيةِ إلى تجديدِ الفِكرِ استجابة لِتحدّيّاتِ العصر، والحريصة على إبراز الهُويّة العربيّة في مُواجهةِ عالمٍ مُتغيّر بالتّصدّي للغزو الفكري. وهو صاحبُ مدرسةٍ عربيّة في علم السياسة، وأسهب فيً حديثِه عن المُستقبلِ برؤيةٍ مؤمنة مُسلمة، وأحد دُعاة العُمران بلا طُغيَان، ومِن الجامعين بين الفِكر والفِعل، والمُنادين للتفاعُلِ والتواصُل باللقاء المستمرّ بين الكُهولة والشباب.

وكوني أستاذةً للغةِ العربيّةِ وآدابها وثقافتها **أوّلًا**، فمنهجي العلمي التدريسي مُستقى مِن إنتاج الأعلام وتاريخِهم، ومُتابعةِ فِكرهم المكتوب، وإبراز قيمةِ الكلمة المُفردة في سِياقها زمانيًّا ومكانيًّا لدراسةِ أثرِها في مُجتمعِها. **وثانيًا**، كوني ابنةً استقت تعليمَها الأساسي وثقافتَها العامّة مِن والِدِها فقد تشرّبت على يديهِ قيمةَ دِراسةِ تاريخ المُصْلِحين وتذوّقَتُ فيها الفائدةَ والمُتعةَ اللتين تبرزان دَومًا عند مُصاحبةِ الأفرادِ النُّخبة في تجربتِهم الحَياتيّة. **وثالثًا**، كوني باحثةً ألخّصُ ما أورده أحمد صدقي الدجاني عنهما، مُبرزةً ملامح شخصيّة هؤلاء الأعلام

(20) الإمام محمّد بن يوسف السنوسي (وفاته 895 هـ)، مؤلّف العقيدة السنوسيّة الصغرى أم البراهين أو العقيدة، وهو كتاب له مكانته في علم التوحيد لَخّصَ فيه العقيدة على طريقة أبي الحسن الأشعري. ويكيبيديا.

(21) أحمد صدقي الدجاني، «عَلَمٌ مِن يافا،» في: **إسهامات الدكتور أحمد صدقي الدجاني في أكاديميّة المَملكة المغربيّة**، الجزء الأول (مراكش: المؤلف، 2008)، ص 84.

(22) محمّد أنيس (1921ـ 1986)، أستاذ التاريخ في جامعة القاهرة ورائد مدرسة التاريخ الاجتماعي في مصر.

(23) الدجاني، **الحركة السنوسيّة: نشأتها ونموّها في القرن التاسع عشر**، المُقدّمة ص 9.

الثلاثة الرئيسيّة، ومحاور منهجهم الفكري والروحي، ومُركِّزة على محاور هذه الندوة، آملةً في استنهاضِ جيلِ الأبناء والطُّلابِ برؤيةِ نصف الكأسِ المُمتلئ. وقد لاحظتُ خلال تفاعلي مع طلبةِ كلّيّة الدراساتِ الإسلاميّة هذين العامين الدراسيين شَوقهم لاكتسابِ معرفة علميّة روحانيّة، وتعبيرهم عن حاجتِهم إلى الاستزادةِ مِن منابع التربيةِ الروحيّة التي تمدُّ الفردَ بنَظراتٍ إيجابيّة تُقوّيهم وتستحثّهم على العملِ وسط المجموعة، وتكشف لهم عن قيمِ التواصُل مع الكَونِ مِن حَولهم.

ثالثًا: محاور أعمال السنوسي والدجاني: بماذا تُنْبئ؟

إصلاحُ الفردِ المُسلم وتكوينُ نواة مُجتمع إسلامي قَوي، ونشر الإسلام في البلادِ التي لم يصلها مِن قبل ـ هو ما استهدفه نظامُ الحركةِ السنوسيّة ووضعه **ابنُ السنوسي** [24] نصبَ عَينيه في تأسيسِها وخلال نشرِها، مُتّخذًا أساسًا له لتحقيقِ هذا الهدف «الزاوية» و«الطريقة الصوفيّة». وبحسبِ ـ الفهمِ الصحيح للمُصطلحين والمُتوافق مع الفهم العامّ لهما في آنِهِ – يتمّ بهما معًا صلاحُ الفردِ حيث يرتفع بنفسِهِ من طريقِ الصوفيّة، ويعيش مُساهمًا في مُجتمع يستغلّ فيه إمكاناتِه من طريقِ الزاوية، وبهما معًا يتولّد مُجتمعٌ مُتعاونٌ يقوم أفرادُه بنشرِ الإسلامِ وتبليغِ الدّعوة[25].

ومِن عناوين بعض مؤلّفاتِ ابنِ السنوسي تتّضحُ مَنهجيّةَ فِكرِه ودَورَه التربوي مُعلِّمًا ورائدًا وفقيهًا: **إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن**، و**الكواكب الدُّرّيّة في أوائل الكُتُب الأثريّة**، ورسالة **السُّلوك**، ورسالةُ **جامِعةٌ في أقوالِ السُّننِ وأفعالِها**، و**تُحفُ المُحاضرةِ في آدابِ التّفهّم والتّفهيم والمُناظرة**، ورسالةُ **الفَلاحِ في الفَتحِ والنّجاح**، و**سيفُ النّصرِ والتّوفيقِ وغايةُ السُّلوكِ والتّحقيق**. وهي مِن بينِ أكثر مِن أربعةِ وأربعين مؤلَّفًا ما بين كتابٍ ورسالةٍ وَرَدَت في **هديّة العارفين في أسماء المؤلّفين وآثار المُصنّفين** لإسماعيل باشا البغدادي، وفي **سيرة السنوسي الكبير وفق المصادر** لِمحمّد عبد الهادي شعيرة[26].

«الطّرقُ إلى الله كثيرةٌ ورُبّما بِعددِ أنفاس الخلائق، ولكنّها في الحقيقةِ واحدةٌ إذ مطلوب الكلِّ واحد. والأخذ عن الطُّرقِ الكثيرة حَسنٌ بلا ريب لما فيه مِن التعلّقِ بأذيالِ الأخيار والتوسّلِ بِجانبِ الأبرار». كلماتٌ قدّم بها ابنُ السنوسي كتابَه **السلسبيل المُعين في الطرائق الأربعين**، مُوضّحًا أهمّيّة التّنوّع المنهجي ومُنبِّهًا في الوقتِ نفسِه إلى ما انتشر في زمانِه

(24) محمّد بن علي السنوسي.

(25) الدجاني، المصدر نفسه، ص 236.

(26) محمّد عبد الهادي شعيرة، «سيرة السنوسي الكبير وفق المصادر،» **مجلة كلية الآداب** (بنغازي، الجامعة الليبيّة)، السنة 1 (1958)، ص 189.

مِن آراء أخذ بها العامّة وتحتاجُ إلِى مُراجعةٍ وتدقيق بقولِه: «دخل الغلطُ في الأخلاقِ على جماعةٍ. ودخل الغلطُ على كثيرٍ مِن المُتعمّقين في عدمِ المبالاةِ بعمارةِ الأوقاتِ، واسترسلوا في تناولِ الشهواتِ، وهو خطأٌ، فإنّ تضييعَ الأوقاتِ مِن نزغاتِ الشيطانِ الرجيم». ويُثبت قصيدةً تجمعُ بين الأقطاب والعُلماء، هذا الجمعُ الذي اختطّه هو طريقًا له[27]. وما أجدر شباب هذا العصر الانتباه لمُصطلح عَمارة الأوقاتِ ولِمُراجعةِ فِقه الأخلاق، وتضمين الأُسس الروحيّة في المناهج التربويّة.

أمّا الشيخ حسين الدجاني فقد أنشد في نصيحتِه الأخلاقيّة قائلًا[28]:

«ألا بالصبرِ تَبلغُ ما تريد وبالتّقوَى يلينُ لك الحديدُ

فكُن رَجلًا على الطاعاتِ جَلْدًا لَهُ في اللهِ قد صَدَقت عُهودُ

وكُن باللهِ مُعتَصِمًا وسَلْهُ عَوائدَ بِرِّهِ فيما يَجودُ

وأخلصْ صالحَ الأعمالِ واشكرْ لَهُ نِعمًا فليس لَها عديدُ

ولا تنظرْ لغيرِ اللهِ واعلم بأنّ اللهَ يفعلُ ما يُريدُ

ولا تطلبْ سِواه لِكشفِ ضرٍّ ألمَّ ولَو بِه قُطع الوَريدُ

ولا تغضبْ وإن مُلِئتَ غَيْظًا فخيرُ حُلى الفتَى خُلقٌ حميدُ

ووالِ الأولياءَ ودعْ قلاهم فمَن عاداهُم يَومًا يَبيدُ

فتُحدّثُ هذه الأبياتُ المنظومة لِلشيخ حُسين سليم الدجاني مِن قصيدتِه الطويلةِ المُسمّاة بالنّصيحةِ الدّجانيّةُ بنهجِهِ التّربوي مُدرِّسًا ومُفتيًا بيافة المَحميّة على مَذهبِ السادةِ الحنفيّة بمنشورٍ مِن مَقام المشيخةِ الكُبرَى في الدّولةِ العثمانيّة لِما ينوف مِن الأعوامِ عن الأربعين.

كان هذا منهج مُحمّد بن علي السنوسي وحُسين سليم الدجاني، فالعَلَمان عملا ـ وهما مِن رِجال العِلم والفقه والمُجتمع ـ على نشرِ مشاريع إصلاحيّةٍ بتجديدِ الفِكرِ وبتشجيع العملِ المُنتج وبتركيزِهما على التربيةِ الروحيّة والتوسّعِ في دائرةِ التوعية والإرشاد لإيصالِ المنفعة للقريبِ والبعيدِ والمُحتاجِ في حقبةٍ تاريخيّةٍ حَرِجة.

كيف كان حال زمانهما؟ ما إن دخل العالمُ الإسلامي في القرنِ الثالث عشر الهجري، ودخلت أوروبا في القرنِ التاسع عشر الميلادي حتّى بدت علاماتُ الضعف والانحلال بوضوحٍ

---

(27) الدجاني، المصدر نفسه، ص 142 و145 – 146، ومحمد بن علي السنوسي، **السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين** (طرابلس: وزارة الإعلام والثقافية الليبية، [د. ت.])، ص 161، و156.

(28) قصيدة الشيخ حسين بن سليم الدجاني «النصيحة الدجانيّة»: <https://www.poetsgate.com/ViewPoem.aspx?id=146641>.

على كلّ الدولِ الإسلاميّة، ومِن بينها الدولة العثمانيّة التي كانت قد امتدّت حتّى احتلّت رُقعةً كبيرة في القارّاتِ الثلاث؛ بقيّة الشمال الأفريقي وآسيا العربيّة وآسيا الصغرى والبلقان[29]. وتمثّلت علامات الضعف في إدارةِ هذه الدولِ وأجهزتِها الدفاعيّة وفي حَياةِ شُعوبِها وانتشارِ الجهلِ بينهم. ويُجسّد اللقبُ الذي أطلقته الدولُ الأوروبيّة على الدولةِ العثمانيّة حالَها: «الرجل المريض». فهو اسم مُعبّرٌ يعني أمرين: «أوّلهما الإشارة إلى حقيقةِ وضعِ الدولةِ بما فيه مِن ضعفٍ وانحلالٍ واستشراءِ الداء، وثانيهما الإشارة لما وراء هذه الحقيقةِ مِن أنّ لهذا الرجلِ المريض ثروةً ضخمةً بإمكانِ الأقوياء أن يضعوا أيديهم على بعضِها، كما أن بعضَها الآخر سيُصبح تركةً لهم عند وفاةِ هذا المريض. وهكذا تكيّفت سياسةُ الدولِ الأوروبيّة تجاه المسألةِ الشرقيّة، فتنازعت أحيانًا فيما بينها على أجزاء الدولةِ العثمانيّة وعملت أحيانًا على إطالةِ عُمرِ المريض لما استوجبت مَصلحتها ذلك، وعملت على القضاءِ عليها فيما بعد لما رأت ضرورة مَوتِه. أمّا آثار المرض التي ظهرت للعيانِ فكانت تبدو منذ أواخر القرن الثامن عشر على مُختلفِ جَوانب حياةِ الدولة، فهي بادية في إدارتِها وجهازِها الدفاعي تمامًا، كما أنّها واضحةٌ في حياةِ شُعوبِها والجهلِ المُطبق عليهم[30]. فقامت حركات الإصلاح التي تتابَعَت في الدولةِ العثمانيّة منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر وبرزت بتأثير عوامل ثلاثة[31]:

الأوّل، إدراك بعضُ النُّخبةِ بِسوءِ الأوضاعِ في العالمِ الإسلامي؛

الثاني، مُواجهة الغرب للعالمِ الإسلامي واحتلالُه أجزاءً منه؛

الثالث، تَبيُّن حقيقةِ التخلّف وإبرازها أمام أعين العالم الإسلامي نتيجة الاتّصال بالغرب، فيُمكن عدّه عاملًا مُساعدًا لإظهار الواقع الأليم آنذاك.

ويُمكن تصنيف هذه الحركات إلى نوعين:

الأوّل؛ الحركات التي قامت بها السلطات المُستنيرة للإصلاح؛

والثاني، الحركات التي قام بها رجالٌ مُصلحون مِن عامّة الشعب.

والعلمان محور البحث مِن النوع الثاني، «فمع تتابع ظهور المُصلحين في الأمّة العربيّة طوال مراحل تاريخها المُتلاحقة، كان لدى جماهير الناس فيها تهيّؤ لفكرةِ قُدوم المُجدّدين الذي يُجدّدون مَعالم الدين ويعملون مِن أجلِ نقلِ الناسِ إلى واقعٍ أفضل»[32]. فَمع مُجابهةِ

(29) الدجاني، **الحركة السنوسيّة: نشأتها ونموّها في القرن التاسع عشر**، ص 12.

(30) المصدر نفسه، ص 13ـ 14.

(31) المصدر نفسه، ص 28.

(32) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو هريرة «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا». رواه أبو داود، حديث رقم 4291، وصحّحه السخاوي في **المقاصد الحسنة**، ص 149.

العالم الإسلامي منذ أواخر القرنِ الثامن عشر الميلادي بتحدّي الغربِ العسكري ثم الحضاري، ظهر في القرنِ التاسع عشر الميلادي عددٌ مِن المُصلحين الذين قاموا بحركاتٍ إصلاحيّة في أجزاء مُختلفة مِن العالم الإسلامي. وقد أدّت تلك الحركات دورًا مُعيّنًا في حياة الأمّة الإسلاميّة، كما كانت لها استجابات لذلك التّحدّي الغربي ولتلك المواجهة[33].

رابعًا: مَن هو ابن السنوسي؟

هو مُحمّد بن علي بن السنوسي الخطّابي الحسني الإدريسي[34]، العَلَم الذي يتّفق المؤرّخون العرب على تاريخ ميلاده في يوم 12 ربيع الأوّل من سنة 1202هـ الموافق 22 كانون الأول/ديسمبر 1787م، وأورد حفيده أحمد الشريف في كتابه **الكوكب الزاهر** قولَه عن اقتران تاريخ ميلاده بيوم ذكرَى مَولد الرسول صلّى الله عليه وسلّم: «لذلك سَمّتني أمّي مُحمّدًا». وحظي مُحمّد بعناية عمّته فاطمة أستاذته الأولى التي كانت مِن فُضليات أهلِ زمانها مُتبحّرةً في العُلوم مُنقطعةً للتدريسِ والوعظ يحضر دَرسَها ومَواعظَها الرجالُ، تولّت تربيته وتثقيفه بعد وفاةِ والدِه، حَبّبت إليه العلمَ وأشغلته بعلم العقائد والتوحيد صغيرًا بعد أن جمعَ القرآن حتّى وفاتها وهو في سِنّ العاشرة[35]. عاشَ صباه في بلدة مُستغانم الواقعة على الساحل الجزائري حيث كان مُحمّد بن علي السنوسي مُقبلًا على العلم بشغف، يقضي وقتًا مُفكّرًا في ما يتعلّمه ومُتأمّلًا الأوضاع مِن حَوله. «كان يُفكّر في حالِ العالَم الإسلامي الذي لا يعدو كونه قطيعًا مِن الغنم لا راعي له على الرغم مِن وجودِ سلاطينه وأمرائه ومشايخ طُرقه وعُلمائه، فمع أن هناك عددًا كبيرًا مِن المُرشدين وعُلماء الدين الموجودين في كلّ مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مُفتقرًا أشد الافتقار إلى مُرشدٍ حقيقي يكون هدفُه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غايةٍ واحدةٍ ونحو غرضٍ واحد. والسببُ في هذا انعدامُ الغيرة الدينيّة لدى العُلماء والشيوخ وانصرافُهم إلى الخلافاتِ القائمةِ بينهم التي فرّقتهم شيعًا وأحزابًا وجماعاتٍ، فأصبحوا لا يعنون بنشرِ العِلم والمعرفة، ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف، وهو دينٌ توحيد أساسُه الاتّحاد وجمعُ الكلمة. زِد على هذا أنّ على هؤلاء العُلماء والشيوخ واجبًا آخر

(33) الدجاني، المصدر نفسه، ص 7.

(34) وضّح حفيده أحمد الشريف في كتابه **الأنوار القدسيّة في مقدّمة الطريقة السنوسيّة** كيف جاء لقب السنوسي من قبيلة انتسب إليها جَدّه بعد أن نزل عندهم طالبًا العلم في تلمسان، ولقب الخطّابي جاءه مِن جدّه «خطّاب بن علي بن يحيى» حيث كانت تُعرف أسرته في مستغانم بآل خطّاب، وجاءه لقب الإدريسي مِن الأدارسة الذين ينتسب إليهم والذين أسّس جدّهم إدريس الأكبر دولةً في المغرب الأقصى بعد أن فرّ إليه مِن اضطهاد العبّاسيين سنة 172 هـ. وحيث إنّ إدريسًا الأكبر ينتسبُ إلى الحسن بن علي لذلك عُرف السنوسي بالإدريسي الحسني.

(35) الدجاني، المصدر نفسه، ص 38– 39، عن: أحمد النائب الأنصاري، **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب** (طرابلس، ليبيا: مكتبة الفرجاني، 1970)، المقدّمة.

عظيمًا في حقِّ المِلّة الإسلاميّة؛ إذ إن الشعوبَ المُجاورة في السودان والصحراء مِن أفريقيا الغربيّة لا تزال تعبد الأوثان! فلمّا سألوه: وماذا يجب على المُسلمين عملُه لتلافي ما ذكرتَ؟ أجاب: سأجتهد، سأجتهد»[36].

1 ـ شخصيّته الإصلاحيّة: متى برزت؟

تأثّر ابن السنوسي بما كان يراه مِن حالِ بلاده الجزائر آنذاك مِن ظُلم الولاة الأتراك، ومِن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدَّهم، وإدراكه أطماع الدول الأوروبيّة في بلاده. فقصد محروسة فاس محطّ رحال العلماء طالبًا للعلم في جامِعها المشهور «القرويين» وتعرّف إلى أكابر علماء المغرب، وأخذ عنهم، وتنقّل بين الحَلقات المختلفة التي كانت تُدرِّس وتُعطَى فيها الإجازات، واطّلع على ضعفِ الدولة العلويّة في المغرب[37].

وفي فاس رسمت ثلاثة اتّجاهات رئيسيّة هذه المرحلة الثانية مِن شخصيّته الفكريّة والعِلميّة وأوضحت الاتّجاهات الإصلاحيّة فيها[38]:

الاتّجاه الصوفي: حيث نمّى هناك رغباته الصوفيّة التي نشأ عليها ومال إليها لتوفّر الفرص أمامَه للتأمّل والرؤى، وتأثّره بالنظام المغربي للصوفيّة بدءًا مِن مَوطنه الأوّل مستغانم وصولًا إلى فاس موئل الفرق الصوفيّة والميدان الخصب لنشاطها. وقد ساعدته الصوفيّة على الارتفاع بنفسه والارتقاء بمشاعره، وزادت مِن شعوره بمسؤوليته في مُجتمعه ومِن استعداده لتحمّل هذه المسؤوليّة. فاستمرّ اهتمامه بالصوفيّة وبقي خطّها بارزًا في شخصيّته حتّى إنّه نظم طريقة خاصّةً عُرفت باسمِهِ.

الاتّجاه الفقهي: نلاحظ مِن تآليف ابن السنوسي سِعةَ اطّلاعِهِ على الفِقهِ المالكي الذي يتّبعه أهلُ الشمال الأفريقي منذ القرن الثاني للهجرة وفِقه المذاهب الأخرى، والتي عكف على دِراستِها وقرأ الكتبَ الكثيرة التي تضمّها خزائن جامع القرويين. فمثّل هذان الخطّان توازنًا في شخصيّة ابن السنوسي بعدم مغالاته في صوفيّته وعدم إغراقه في شطحاتها، وكذلك عدم مُغالاته أو وقوفه عند الحروف الفقهيّة أو تجمّده في فهم أحكامها، فزاوج بين دراستيه واتّجاهيه ممّا أكسب صوفيّته طابعَ السُّنّة ولجمها بحدود الشرع، وأكسب فقهَهُ طابع الروحيّة المتألّقة.

الاتّجاه السياسي: معيشة ابن السنوسي وسط جوّ فاس ـ عاصمة دولة ومركز إشعاع العلم ونشر الوعي – طالبًا دارسًا على عُلمائها الذين كان يتمتّع أكثرهم بنفوذٍ عظيم بين عامّة الناس وبمهابة قويّة أمام السلطان، أثّر إيجابيًّا في شخصيّته وزاد مِن اهتمامه بالعمل في المجالات العامّة.

(36) الدجاني، المصدر نفسه، ص 40ـ 41.

(37) المصدر نفسه، ص 41.

(38) المصدر نفسه، ص 45.

وبعد حُصوله على المشيخةِ الكُبرَى وتعيينه مُدرّسًا بالجامِعِ الكبير بِمدينة فاس، بدأ عمله كمدرّس داعية، وبرز إيمانُه بدورِه العامّ مع التقائه بعامّة الناس وبمجموعاتِ الطلّاب وفهمه لِعقليّةِ الجماهير ونجاحه في كسبِ ثِقتهم وفي تَوجيههم. وكان الاحتكاكُ الأوّل بالسلطةِ بعد أن ذاع صِيتُه العِلمي وتنبّه له سلطان مراكش مولاي سليمان الذي خشي أن تنقلب الدعوةُ الدينيّة إلى أخرَى سياسيّة قد تعصف بالسلطنةِ على غرارِ ما يحدث مِن أزمنةٍ بعيدة حيث كانت تبتدئ الحكوماتُ في تلك الديار بالمشيخةِ والإرشاد ثم تنتهي بالحكم والسلطان. فشدّدت الحكومةُ في مُراقبتِه مِمّا حثّه على الترحالِ عام 1235هـ/1819م. وزامَن ذلك أحداث فتنة في فاس وخروج أهل المدينة على السلطان سليمان. فارتحل ابن السنوسي قاصدًا الشرق، وخلال أربع سنوات مُرتحلًا في أسفار مُتواصلة تنقّل فيها بين مُدنِ جنوبِ الجزائر وطولِ الساحلِ الأفريقي الشمالي تعرَّف إلى أحوالِ مُسلمي الغرب وكوّن فكرةً عن أوضاعِهم، وتأثّر لِحالةِ التأخّر التي كانوا عليها، وزادت مَعرفتُه بالطُّرقِ الصوفيّة[39].

مرحلةٌ تالية مُهمّةٌ في تكوينِه وتفاعُلِه مع رِجالِ الدين مِن ناحيةٍ ومع الطلبةِ مِن ناحيةٍ أخرى جرت في رِحابِ الأزهر الشريف خلال العام الذي أمضاه في القاهرة 1239هـ/1824م. وكانت القاهرة آنذاك تعيش في كنف مُحمّد علي باشا الذي تولّى زمام الأمور بقوّة منذ عام 1805م حيث ولّاه الشعب بقيادة عمر مكرم لكنّه سُرعان ما انفرد بالحُكم وضغط على زعماء الأمّة فنفى رئيسهم عمر مكرم. وبينما كانت العلوم التي تُدرّس في الأزهر في ذلك الوقت فاقدة لبريقها لانعدام الإبداع وشيوخه مُتمسّكين بالتقليد، لفت ابن السنوسي النظر إليه بِجُرأتِه في مُعالجةِ المسائل الفقهيّة أثناء تدريسِه في الأزهر، وكان هذا سَبب نقمةٍ ومُعارضةٍ له تجاوَزَت حَدَّ المناقشةِ إلى التكفيرِ والإرهاب. وقد أشار الإمامُ مُحمّد عبده في كتابِه **الإسلام والنصرانيّة** إلى هذه العداوةِ في مَعرضِ حديثِه عن عداوةِ عُلماء العصرِ للعُلوم[40]. فزادت زيارته للقاهرة قناعته بأنّ الدولة العثمانيّة في طريق الانحلال والاضمحلال مع رؤيته استقلال محمّد علي بشؤون مصر، ونقم على هذا الوضع الذي أتاح الفرصة للولاة الفاسدين لظلم الشعب.

كذلك أدرك ابن السنوسي أنّه وأمّته العربيّة بحاجةٍ إلى تحصيلِ عُلوم كثيرة بجانب العُلوم العقليّة والنقليّة التي استفاد منها وحصّلها، مستوعبًا أن تفوّق أوروبا نتجَ من اهتمامها بالصناعةِ والرياضةِ والفنون الحربيّة والعمليّة وجمعها بين ثمرةِ العِلم وثمرةِ الأخلاق، بينما حال اختلاف المذاهب وكثرة الطرق والحُكم الفردي دون تقدُّم الإسلام.

(39) المصدر نفسه، ص 52.

(40) المصدر نفسه، ص 108.

استجاب ابنُ السنوسي لإشارةٍ للسفر إلى الحجاز[41]، وهو بحُكم طبيعتِه ونشأتِه يأخذ بالإشاراتِ الموحية[42]. فنزل في مكّة المُكرّمة نحو عام 1240هـ/1825م وأخذ كفايته على العلماء، وتعرّف إلى مختلفِ الاتّجاهاتِ الفكريّة، والتقَى قُطبه أحمد ابن إدريس الملقّب بأبي العبّاس العرائشي[43] الذي أخذ عنه العلمَ وأعطاه العهد، فبنَى أوّل زاوية له في الحجاز عام 1252هـ/1837م بعد أن استجاب عددٌ مِن الناس لدروسِهِ وصاروا له مُريدين وأتباعًا.

2ـ ماذا تمثّلُ الزاوية في حركة ابن السنوسي؟

اتّخذ ابنُ السنوسي «الزاوية» ركيزةً لنظام حركته، وهي «التطبيق العملي للفكرة الإصلاحيّة التي نادَى بها». فنظام الزوايا معروف في العالم الإسلامي قبل السنوسيّة بقُرون، واستفادت منه الطُّرُقُ الصوفيّة لتكوين مُجتمعاتٍ خاصّةٍ بها في نطاقه. ومِن الزوايا الصوفيّة اقتبس ابنُ السنوسي «الزاوية السنوسيّة» والتي اتّسع معناها وتطوّر تنظيمُها وزادت اختصاصاتها حتّى أصبحت تُمثّل النواة الأولى لمُجتمعٍ تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة ودعويّة تبشيريّة أيضًا.

وقد احتاج تَوسّعُ معنى الزاوية وتوضيحه بِشكلِه الجديدِ في فِكرِ ابنِ السنوسي إلى مدةٍ مِن الزمن، إذ إنّه بدأ بتأسيس زاويةٍ أبي قبيس على شاكلةِ الزوايا الصوفيّة الأخرى، ثم بعد أن تطوّر تفكيرُه ورأى رؤياه التي أَمر فيها أن يُوجّهَ الإخوان إلى بناءِ الزوايا واستصلاح الأراضي ونشر الإسلام، صار يعهد لإخوان الزوايا بمَهام تتجاوز مجرّد العبادة إلى تنفيذ الإصلاح والقيام بالدعوة، فكان أن تحدّد عمل الزاوية»[44].

(41) غادر السنوسي القاهرة بسرعة إلى الحجاز بغيّة الحجّ وحتى يظفر بمقابلة ضالّته المنشودة المربّي الذي طالما اشتاقت نفسه إلى لقائه ليكتمل به حسب كلام الشيخ الأخضر العيساوي ومحمّد فؤاد شكري. انظر: المصدر نفسه، 63.

(42) نقلًا عن: محمّد فؤاد شكري، **السنوسيّة دين ودولة** (القاهرة: دار الفكر العربي، 1948)، ص 20. أورد شكري حكايةً توضّح دافع خروج ابن السنوسي السريع مِن القاهرة مفادها أنّ ابن السنوسي عند انتهائه يومًا مِن الوضوء في الجامع الأزهر اصطدم بفلاح فقير غير متعمّد لضيق الباب، فقال له الرجل عند خروجه: «لماذا تصنع معي هكذا يا سنوسي؟»، فتعجّب ابن السنوسي وسأل الرجلَ كيف عرف اسمه، وإن كان هو القطب الذي ينشد لقاءه، فأجابه الفلّاح بكلام يفهم منه أنّه مِن أولياء الله الصالحين وأن على ابن السنوسي أن يقصد مكّة لأن القطب موجود فيها. انظر: الدجاني، المصدر نفسه، ص 63 – 64.

(43) أحمد بن إدريس، أبو العبّاس العرائشي (1173– 1253هـ) ميلاده في ميسورٍ ووفاته في صبيا في عسير الوهّابيّة، اشتهر بالعلم والصلاح وبالتعمّق في الدراسة الفقهيّة وفي الطُّرُق الصوفيّة. له كتاب **حزب المحامد الثمانية** وبهامشه الرسالة المسمّاة ب «الأساس» والكتاب المُسمّى **رُوح السُّنّة** وكتاب **كيمياء اليقين**. نقلًا عن: الدجاني، المصدر نفسه، ص 67 – 68.

(44) الدجاني، المصدر نفسه، ص 236 ـ 237.

وعدّد بريتشارد الخدمات التي تُقدّمها الزاوية للمُجتمع المُحيط بها، وشبّهها بالأديرةِ المسيحيّةِ في أوروبا إبان العُصورِ الوسطى، مِن ناحيةِ الخدمات التي تؤدّيها، وقال: «فقد خدمت الزوايا السنوسيّة أغراضًا أخرَى كثيرة إلى جانبِ الغرضِ الديني، كانت مدارس واستراحات للقوافل ومراكز تجاريّة ومراكز اجتماعيّة وحُصونًا ومَحاكم ومخازن وبيوتًا للفقراء وحرمًا آمنًا ومدافن، إلى جانب كونها قنوات يجري فيها جدول مِن بركاتِ الله»[45].

ومع نجاح دعوةِ ابنِ السنوسي في الحجاز صار له اجتهاده الخاصّ وطريقته الصوفيّة التي يُلقّنها لأتباعه، وفتح بابَ الاجتهاد لِمَن تتوفّر فيه شروط المُجتهد، فحرّك ذلك ضدّه عداوة شيوخ مكّة وعلمائها الذين تضايقوا لمخالفته إيّاهم. وهكذا ارتحل عنها قاصدًا المغرب في نهاية عام 1255 هـ.

وأستشهدُ بهذه الأبيات التي أوردها ابنُ عبد البرّ[46] لتأكيدها تشابه مصير ما يواجهه المتنوّرون مِن صعوباتٍ وعداواتٍ في طريق سبر أغوار المعرفة والحقّ في معظم الأزمنة والأمكنة:

النّاس في جِهةِ التّمثيل أكفاءُ ... أبوهم آدم والأم حواءُ
نفس كنفسٍ وأرواح مُشاكلة ... وأعظم خُلقت فيهم وأعضاءُ
فإن يكُ لهم مِن أصلِهم حسبٌ ... يُفاخرون بِهِ فالطّينُ والماءُ
ما الفضل إلّا لأهلِ العلم أنّهم ... على الهُدَى لِمَن استهدَى أدلاءُ
وقدرُ كلِّ امرئٍ ما كان يُحسِنُهُ ... وللرجالِ على الأفعالِ أسماءُ
وضدُّ كلِّ امرئٍ ما كان يجهلُهُ ... والجاهلون لأهلِ العِلمِ أعداءُ

3ـ إلى أين وصلت الحركة السنوسيّة في جهادها؟

واجَه ابن السنوسي أخبارَ احتلالِ فرنسا لوطنِه الجزائر بجهدٍ وجهاد لتقويةِ الثورة هناك ومدّها بالأموال والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. فقد تبعه عددٌ ليس بالقليل وضمّ رجالًا مِن الحجاز والمغرب ومصر والسودان. ويقرّ دوفرييه: إن السنوسيّة هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر، وإنّها السبب في الثوراتِ المُختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمّد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر عام 1848-1861م، وعصيان محمّد بن تكوك في الظهرا سنة 1851»[47].

(45) المصدر نفسه، ص 240.

(46) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ، **جامع بيان العلم وفضله** (بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000)، ص 48.

(47) الدجاني، المصدر نفسه، ص 79.

ولهذا نشبت حربٌ سنوسيّة فرنسيّة بعد أن خشيت فرنسا تأثير السنوسيّة بما تُمثّله مِن قُوّة عظيمة مع انتشارِها في أواسط أفريقيا حيث قدّر دوفريبه عام 1883 أتباعها بنحو ثلاثة ملايين نسمة، بينما قال بونه موري في مقاله: «ويُقدّر عددُ مُريدي السنوسيّة بأربعة ملايين»، وقال أيوالد فولز: «الأثر الروحي لهذه القوّة عظيم بعد أن حَوّلت الزنوجَ الوثنيين إلى الإسلام، ونافست بنجاحِ البعثات التبشيريّة المسيحيّة وأثّرت بقوّة على الزنوج وحضّرتهم»[48]. وقد مهّد الفرنسيّون لحَربهم العسكريّة ضدّ السنوسيّة بحرب دعائيّة مُركّزة في صُحفهم لتأليب الرأي العام الأوروبي عليها وعلى زعيمها زاعمين أنّها تُعادي النصرانيّة[49].

4ـ هل نجح ابنُ السنوسي في تحقيق نهضة تنويريّة؟

باختيار ابن السنوسي «الجغبوب» في وسط برقة مركزًا للحركة، تحوّلت بعد انتقاله وأتباعه إليها مِن «واحة مالحة يأوي إليها اللصوص ولا تجسر القوافل أن تمرّ بها إلى مهدِ أمانٍ ومركز عبادةٍ ومشرق أنوار، بغرسه فيها الأشجار وتنسيق الجنان واستنباط العيون والتوسّع في البناء، وتأسيسه مدرسة لتخريج مُريدي الطريقة، أجلس للتدريس فيها جلّة العلماء. فأصبحت زاويته مركزًا علميًّا بفضل مسجدها ومدرستها ومكتبتها التي أسّسها بعقله المستنير في مُنتصف القرنِ التاسع عشر. فلم يترك الإمام ابن السنوسي بلدًا إسلاميًّا إلّا واستجلب منه الكُتُب، وضمّت مكتبته مِن المجلّدات حوالي ثمانية آلاف وقسمًا كبيرًا مِن المخطوطات النفيسة، وتنوّعت موضوعات الكتب بين الفِقهِ والفلسفة والتاريخ والأدب والتراجم والجغرافيا والحديث والتفسير»[50].

وقد برز تفكيرُ ابنِ السنوسي الاستراتيجي باختيارِه تلك البقعة؛ فهي خارج قبضة الأتراك والفرنسيين والمصريين، وعلى خطّ الحجّ الرئيسي القادم مِن شمال أفريقيا الغربي عبر مصر إلى مكّة، وهذا الخطّ مقطوع عند الواحة بخطٍّ تجاري آخر مِن الساحل إلى الصحراء إلى السودان[51].

ويتجلّى تفكيرُ **ابنِ السنوسي** السليم في مجالِ نشرِ الدعوة في ما روي عنه أنّه اشترَى قافلةً مِن العبيدِ وتحريره لأفرادِها ثم تعليمهم وإعادتهم إلى أهاليهم لنشر الإسلام بينهم، وليكونوا أقدر دُعاة بينهم. كذلك يتجلّى توجهه العلمي بتوجيه طلابه لدراسة الكيمياء قائلًا لهم: الكيمياء هي كدّ العرق واليمين. ويُشوّقهم للقيام على الحرف والصناعات، ويأمرهم بقراءة النحو لإصلاح ألسنتهم لكتاب الله وحديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم[52].

---

(48) المصدر نفسه، ص 275.
(49) المصدر نفسه، ص 229.
(50) المصدر نفسه، ص 116.
(51) المصدر نفسه، ص 113.
(52) المصدر نفسه، ص 157.

وهكذا فقد حقّق ابن السنوسي الهدف مِن الطريقةِ الصوفيّة وسيلة لتزكيةِ النفسِ وتصحيح العقيدة وتيسير العملِ النافع للجماعةِ بِتعمير البِقاع ونشرِ التعليم وإرشادِ الأنام مع إعطاءِ العبادةِ حقّها بالدعوة للتمسّكِ بِكِتابِ الله وسُنّة رسوله، وتنظيم استمرارها بعد وفاته عام 1859.

خامسًا: أين برز حُسين بن سليم الدجاني؟

عاش حُسين بن سليم الدجاني صباه في فلسطين وفي مدينة يافا الواقعة على ساحلِ البحرِ الأبيض المتوسّط تحديدًا حيث درس حسين الدجاني على والدِه وقرأ النحو والصرف، ثم سار مِن تلقاء نفسه إلى شيخٍ مِن المُعلّمين ولازَمَه لتعلّم القرآن الكريم. وكطفل يسمع حكايات أهله وأترابه تأثّر حُسين بِآثار وقوع مدينته يافا في العقدين السابقين لميلاده فريسة حُروب نشبت بين علي بك الكبير صاحب مصر وحليفه الشيخ ضاهر العمر والباب العالي. وتبدو صعوبة تلك الحصارات التي ضربها علي بك الكبير ومحمّد أبو الذهب على أهلِ يافا واضحةً في وَصفِ الجبرتي لحصارِ أبي الذهب ليافا عام 1189هـ/1775م الذي جاء فيه: «فلمّا وصل أبو الذهب إلى يافا حاصرها وضيّق عليها، وامتنع أهل يافا هم أيضًا عليه، وحاربوا مِن داخلها وحاربهم مِن خارج ... فلم يزالوا بالحربِ حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها مِن كلّ ناحيةٍ وملكوها عنوة، ونهبوها وقبضوا على أهلها ... ولم يُميّزوا بين الشريف والنصراني واليهوديّ والعالم والجاهل والعالي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم ... »[53].

كذلك تصلنا صورة ليافا خلال سنوات معدودة سابقة لميلاد حسين بن سليم الدجاني مِن وصفِ الرحّالة «س. ف. فولني» عند مروره بها وإقامته فيها بين عامي 1783م و1785م حيث يذكر أن يافا كانت إقطاعًا مِن إقطاعات السلطانة الوالدة، وأنّ مرفأها كان في أسوأ حال، ولكن عيون الماء العذب التي فيها قُرب الشاطئ تجعلها أجمل مُدُن ذلك الساحل وقد مكّنتها مِن مقاومةِ المُغيرين عليها. ولاحظ فولني أن يافا كانت قبل الحصارين الأخيرين أجمل مدينة على الساحل تكثر في جوارها بساتين البرتقال والليمون والكباد والنخيل والزيتون الذي يشبه شجرة دوح الجوز، ثم حدث أن قطع المماليك الذي حاصروا البلدة جميع تلك الأشجار للاستدفاء أو التسلية[54].

وقُدّر لِحُسين الدجاني في الحاديةِ عشرة مِن عُمرِه أن يعيش حدثًا تاريخيًّا حين غزا نابليون بونابرت يافا عام 1213 هـ/1799 م، واقترف جريمةَ الغدرِ بِحاميةِ يافا وأهلها بعد أن استأمنوا فأمّنوا، وبعد تشديده الحصار عليها، أباحها لجنوده فنهبوها وفتكوا بأهلها، ثم أنهى احتلاله لها بعد أقلّ مِن ثلاثة أشهر إثر هزيمته أمام عكّا لكنّه نسف حُصونها قبل رحيله عنها

---

(53) الدجاني، «عَلَمٌ مِن يافا»، ص 69.

(54) مصطفى مراد الدبّاغ، **بلادنا فلسطين، الجزء الرابع، القسم الثاني: في الديار اليافيّة** (بيروت: دار الطليعة، 1965)، ص 145 نقلًا عن: فرانسوا فولني **سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر**، تعريب حبيب السيوفي (صيدا: المطبعة المخلصية، 1941_1942).

وأحرق المراكب الراسية في الميناء[55]. وتُشير روايات أسرة الدجاني المنقولة شفاهة إلى أن سليم والد حسين الذي كان رجل علم شافعي المذهب ومتصوّفًا، قام بدورٍ في إنقاذِ مَن بقي على قيدِ الحياة مِن جنودِ حاميةِ يافا حيث دخل على بونابرت يُرافِقُه كبير عائلة دمياني الذي كان يعمل قنصلًا لدولة أوروبيّة، وطلب مِن القائد الفرنسي أن يُبقي على حياة مَن بقي لأنّهم استؤمنوا، وأنه سيعمل على إعاشتهم.

1ـ كيف يُكسبُ الترحالُ العقلَ والروحَ؟

رحل حُسين سليم الدجاني في الخامسةِ والعشرين مِن عُمرِه إلى سلطان الجوامع الأزهر والمحلّ الأنور. وكان حسين قد عرف بعض علماء الأزهر الذين نزلوا يافا عندما دهم الفرنسيس البلاد المصريّة واستضافهم والده سليم، مِن هؤلاء الشيخ عمر مكرم والشيخ أحمد الطحطاوي شيخ الحنفيّة بالديار المصريّة[56]. فعمل بنصيحة الإمام الشافعي التي تؤكّدها أبياته الآتية:

تغرّب عن الأوطانِ في طلبِ العُلا وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائد

تفرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ وعِلمٌ وآدابٌ وصُحبةُ ماجد

وقد تجسّدت الليونة والتجديد في المعرفة على يدِ أصحابها عندما أخذ حسين الدجاني بمشورة شيخه الطحطاوي بالتعمّق في دِراسةِ مذهب أبي حنيفة، واقتنع برأيه أنّه لا بأس بالتحوّل عن مذهب إلى آخر بقصدٍ حسن بما أنّ بلده خالية مِن علماء الأحناف فيحتاجه الناس. وبتشجيع والده حين ذكّره بأن قضاة زمانه عمّهم الجهل وينظرون الأقضية على مذهب الإمام الأعظم على جهلٍ منهم، وإذا خالفناهم قالوا أنت أجنبي في المذهب»!

وبعد أن مكث في تحصيل العلم تسع سنوات وجمع بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة وبين ما اصطلح على تسميته «الشريعة والحقيقة» رجع حسين الدجاني إلى يافا ليبدأ الإقراء والتدريس عام 1235هـ، وما أسرع ما تولّى الإفتاء عام 1236هـ/ 1820م[57].

أدّى الشيخ حسين دوره في إرشادِ الناس وتوجيههم بعد أحداثٍ جليلة مُتتالية مرّت بيافا وعايشها مع أهلها خلال عمله مُفتيًا فيها، مِن بينها؛ انتشار الطاعون في يافا سنة 1243هـ، فكان يدور في أسواقِ البلدةِ ليُثبّت الناس على مُواجهة الشدّة بالعلاج المادّي والروحي[58]. كذلك قام بتوعية أهل مدينته عند إعلان الحرب بين روسيا والدولةِ العثمانيّة عام 1245هـ، ثم عند قدوم إبراهيم باشا يافا عام 1247هـ/1831م الذي جاءها بأسطول فعرض وُجَهاء المدينة عليه تسليم بلدهم، فتسلّمها وأبقى مُتسلّمها حاكمًا عليها. ومن ثمّ عند اندلاع الثورة

(55) المصدر نفسه، ص 149، وهو يُشير إلى لو كروا، والجبرتي، وهيرولد في كتابه **بونابرت في مصر**.

(56) الدجاني، «عَلَمٌ مِن يافا،» ص 76.

(57) المصدر نفسه، ص 79.

(58) المصدر نفسه، ص 86.

في البلاد على حُكم إبراهيم باشا لفرضه التجنيد الإجباري ونزعه السلاح مِن السكّان عام 1250هـ/1834م، وإلى أن شقّ الجنود المرابطون في يافا عصا الطاعة ودخل البلدة الجنود العثمانيّون فانسحب جُنوده عام 1256هـ وخرج إبراهيم باشا بصورةٍ نهائيّة(59).

قاد المُفتي حسين الدجاني عمليات ترميم ما خرب وتعميره بعد نزول الخراب بمساجد يافا ومشاهدها. واشتهرت مكتبة الشيخ حسين الذي عُرف برغبته في جمعِ الكُتُب واقتناء الكُتُب القيّمة مِن كلّ فنّ مِن العلوم ألحقها بوقفيّة كتب والده الشيخ سليم. وفتح ديوان داره للضيوف، فلا يحبّ أنّ يأكلَ إلّا معهم، وقصده الناسُ مِن الأطرافِ وأقاصي البلاد وأدناها، وزاره عددٌ مِن العلماء والأشراف، ولازمه عددٌ مِن التلاميذ والمُريدين، واشتهر مجلسه بأنّه مجلس علم محفوظ مِن الهزلِ والفحشِ والهذيان(60).

2ـ بماذا أسهم إنتاج الشيخ حسين الدجاني فكريًّا؟

مع الانشغالِ بالعملِ العام والتدريس وتثقيف المُريدين مِن الصوفيّة حرص شيخنا على تخصيص نصيب وافٍ مِن وقتِه للتأليف، في مُقدّمتها فتاواه **الفتاوى الحسينيّة السليميّة** في الفقهِ الحنفي، ويضمّ فهرسها تسعةَ وثمانين كتابًا في العباداتِ مِن صلاةٍ وصوم وزكاةٍ، وفي النكاح والأمورِ الأسريّة، وفي الحُدودِ، وفي الجهادِ والجزيةِ والمُرتدّين، وفي الشركةِ والمضماريَّة، وفي الاستحقاقِ والتحكيم.

لذلك « يردُ ذِكرُ الشيخ حسين بن الشيخ سليم بن سلامة الدجاني في كُتُبِ أعلام القرنِ الثالث عشر الهجري. وقد أثبته مصطفى مراد الدبّاغ بين شخصيّاتٍ بارزة مِن يَافا في القرنين الأخيرين في كتابِه **بلادنا فلسطين**. وترجم له عبد الرزّاق البيطار في كتابِه **حلية البشر في تاريخِ القرن الثالث عشر**، وذكره إسماعيل البغدادي في كتابه **إيضاح المكنون في الذيلِ على كشفِ الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، وعمر رضا كحّالة في **معجم المؤلّفين**. وجاء الحديثُ عنه في جميعِ هذه الكُتب موجزًا.

وقد حفظت المعلوماتِ عن هذا العَلَم مجموعةُ مخطوطات تضمّ حديثًا وافيًا عنه وعن بلدتِه يافا في القرنِ الثالث عشر الهجري، مِن بينها مخطوطة كتبها أخوه أبو الإقبال السيّد حسن سليم الدجاني ونسخها تلميذه السيّد الشيخ عبد الرزّاق أفندي اللاذقي بعنوان «ترجمة شيخنا القطب الداني ولي الله السيّد الشيخ حسين سليم الدجاني قدّس سرّه»، بجانب تآليفه في الفقهِ والتاريخ وما نظمه مِن شعر. وتتحدّث الترجمة عن إنصافه للضعفاء وتصدّيه للحكّام حين ينزلون بالناس الظلم. وقد اشتهرت بين الناس مواقفه هذه فتحدّثوا عن كراماته وفقًا لِما كان سائدًا في ذلك العصر(61). ومِن ذلك استجابة دعوته للحجّ لبيت الله الحرام وقد قاده

(59) المصدر نفسه، ص 79 و72.

(60) المصدر نفسه، ص 82.

(61) المصدر نفسه، ص 86.

الشوق والغرام، وبعد أن قضى وطره وأدّى الفريضة لبّى نداء مولاه في مكّة المكرّمة يوم الأحد الحادي والعشرين مِن ذي الحجّة ختام سنة 1374 هـ/ ودُفن بالمعلا ما بين آمنة الرضا وخديجة أمّ المؤمنين بِجِوارِ قبرِ الشيخ عبد الرحمان الكزبري قدوة المُحدّثين، وكان قد أوصى بِدفنِه هناك في مكّة حين تمرّض نحو ثلاثة أيّام، وكان يلهج في مرضه بدعاء سيّدنا ذي النون عليه السلام، ويتوسّل بآل البيت بهذا البيت:[62]

زمـانـي رَمـانـي فـي مـراتـع حيّكم فلا تحرموا المسكينَ مِن حُسن نظرة

خاتمة

يعيش عالمنا ثورةً في الاتّصالِ وتفجّرًا في المعلومات لم يسبق له مثيل، فيبرز السؤال مُلِحًّا على صعيد الفرد وعلى صعيد المُجتمع: ماذا نتلقّى مِن هذا الفيض الإعلامي وماذا نترك جانبًا؟ ماذا نُعلّم؟ ماذا نتعلّم مِن المعرفة؟ وماذا نُعلِّم أجيالنا الراهنة؟ أسئلة أثارها الدجاني في حديثه عن العلم عند الغزالي[63]... ووَطننا العربي والإسلامي يعيش في هذا العصر أوضاعًا صعبة لمُعاناته مِن سبعة هموم فَصَّلَها يوسف القرضاوي وحلّل كيفيّة علاجها، وذكرها الدجاني[64] فاستشهد بها لارتباطها بِمِحور دُعاة الإصلاح والتجديد، وهذه الهُموم هي: «التخلّف، وعِلاجه العمل مِن أجل التقدّم والنماء وإزالة العقبات مِن طريقهما؛ والظلم الاجتماعي، وعِلاجه إقامة العدالة الاجتماعيّة وتقريب الفوارق بين الأفراد والطبقات؛ والاستبداد السياسي، وعِلاجه الرجوع إلى نظام الشورى والنصيحة والديمقراطيّة؛ وهمّ التغريب والتبعيّة، وعِلاجه الخروج مِن حالةِ ردّ الفعل إلى حالةِ الفعل ومِن التقليد إلى الاستجابة الفاعلة، وهمّ التخاذل أمام إسرائيل؛ وعِلاجه أن تكون قضية فلسطين قضية كلّ مسلم في المشرق والمغرب، وهمّ التفرّق والتمزّق؛ علاجه الاعتصام بحبل الإسلام، وهمّ التحلّل والتسيّب؛ علاجه إعادة بناء الإنسان».

فالعمل على إعادة بناء الإنسان هدف رئيسي في التعليم، والحديثُ مُوَجَّه إلى جيلِ الشباب فهو جيل قادر على الوفاء بِمُتطلّبات التكليف إن أحسنّا إعداده، وأحسن هو إعداد نفسه فكريًّا وعمليًّا وأدرك قيمة تواصل الأجيال، لذلك ندعو كما دعا الدجاني إلى الحرص على تفاعل حدس الشباب مع خبرة الشيوخ في النضال الذي يستهدف تحقيق أهداف الأمّة. ونضع هذين النموذجين لِعَلَمين ساهما بدورٍ فكري وعقائدي ولِساني بين أيدي الشباب ضمن نماذج الحركات الإصلاحيّة لمعرفة حيويّةِ الأمّة ولفهم التطوّرات التي مرّت عليها في المراحل المُتعاقبة. ولأنّ دراسة الحركات التي قامت في القرن الماضي بخاصّة تُلقي أضواء

(62) المصدر نفسه، ص 87.

(63) أحمد صدقي الدجاني، «العلم عند الغزالي وأسئلة معاصرة مطروحة،» في: **إسهامات الدكتور أحمد صدقي الدجاني في أكاديميّة المَملكة المغربيّة**، ص 33.

(64) أحمد صدقي الدجاني، «يوسف القرضاوي وحوار العروبة والإسلام،» في: أحمد صدقي الدجاني، **تفاعلات حضاريّة وأفكار للنهوض** (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1997)، ص 114.

على الواقع الذي تعيشه الأمّة اليوم وتُوضّح أصوله، وتعرض خلاصة تجارب أمّتنا إزاء مشكلة التحدّي التي لا تزال تُجابهها حتّى اليوم[65]. والوعي التاريخي الحديث للماضي والعودة إلى دراسته بتعمّق، والتعرّف إلى العناصر الإيجابيّة والسلبيّة فيه ضروري لجيلنا المُعاصر في فهم حاضره، وصناعة مُستقبله. كذلك يحتاج الأبناءُ إلى الإلمام بسيرةِ الآباءِ والأجداد، والاهتمام بالجُذور لمُتابعة السير في طريق الحياة المُعاصرة. فالأمّةَ العربيّة اليوم بحاجة إلى أن تُطالع أخبار نُجومها، وذوي الفضل والعقل والذّكاء مِن أبنائها بدلًا مِن أن تظلّ مأخوذة بأخبار غيرها مِن الأمم، وتنشغل بما لا يدفع عجلة التّنمية والثّقافة.

وتدلّ نظرة فاحصة على موسوعة الأعلام لصاحبها خير الدين الزركلي **معجم الأعلام** أو **قاموس السير الذاتيّة لكبار العُلماء** كما يُسمّيها ناشرها[66]، تكشف أن الكثيرَ مِن العُلماء البارزين في العالم الإسلامي ظهروا في القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر. وتُشير حقيقة تعرّف مُحرّري المعجم على أولئك العلماء إلى حتميّة وجود بعض الوثائق المُهمّة التي تُشير إلى إنتاجهم[67].

وعن تلك الحقبة التاريخيّة ذاتها وأثرها العلمي والروحاني تبحث رسالة دكتوراه أعدّتها جين هولت ميرفي في عام (2006) بعنوان **تحسين العقل وإسعاد الروح: الجبرتي والعلوم في القرن الثامن عشر ـ القاهرة العثمانيّة** [68] في الأدوار الثقافيّة والفكريّة للعلوم في القاهرة عشيّة المشاركة السياسيّة الأوروبيّة المباشرة في المنطقة. توثّق مورفي أنشطة علماء الدين المصريين والقادة العسكريين في مجال الحساب والفلك وعلم التنجيم، واستخدام الأدوات الفلكيّة والتقويم وجوانب نظريّة الأعداد، والطبّ، والعرافة، والجبر والتمائم، والتي كانت تُسمّى الغريبة أو العلوم الأجنبيّة في اللغة المحليّة. وتوثّق دراسة أخرى للحاج موسى (2008) حياةَ العالم الجزائري الاستثنائي محمّد اطفيش الجزائري وأعماله (وفاته عام 1914)[69].

---

(65) الدجاني، «العلم عند الغزالي وأسئلة معاصرة مطروحة،» ص 33.

(66) خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي، **معجم الأعلام أو قاموس السير الذاتيّة لكبار العُلماء**، ط 15 (بيروت: دار العلم للملايين، 2002).

(67) منيف الزعبي، «أكاديميّات العلوم والنشاط العلمي في العالم الإسلامي والغرب: دراسة مقارنة،» (جامعة ماليزيا، 2011).

(68) عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي (1753 ـ 1825) مؤرخ مصري عاصر الحملة الفرنسية على مصر ووصف تلك الفترة بالتفصيل في كتابه **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** والمعروف اختصارًا بـ **تاريخ الجبرتي** وهو مرجع أساسي لتلك الحقبة المهمّة من الحملة الفرنسية. قدم أبو جدّه مِن قرية جبرت ـ التي تقع الآن في إريتريا ـ إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، واستقرّ بها (ويكيبيديا).

(69) قطب الأئمة محمّد بن يوسف أطَّفَيِّش (1820 ـ 20 آذار/مارس 1914) عالم مسلم جزائري ومِن الأئمة الإباضية برز في الفقه والأدب واللغة والتفسير، ومِن رجال النهضة الإصلاحيّة في الجزائر. ولد في بني يسقن بمدينة غرداية وحفظ القرآن واستظهره وهو ابن ثماني سنين ثم أخذ عن علماء =

في هذا القرن الجديد نأمل دراسة أدوار مُصلحين ومُجدّدين مُعاصرين يقودون الأجيال لنهضةٍ حديثة يعطون فيها الجوانب الروحيّة حقّها، فالأمل كبير بمَن سيبعثه الله ليُجدّد لهذه الأمّة دينها. فلنعتبر ولنعمل بأمر الخالق سبحانه وتعالى بالسير في الأرض وبدراسة أحوال مَن سبقونا، فكما قال الجُنيد رحمه الله: «الحكاياتُ جُندٌ مِن جُنود الله تعالى، تقوم بها أحوالُ المُريدين، ويُحيي بها معالم أسرار قُلوب العارفين، ويُهيّج بها هَواجس خَواطر المُحبّين، ويُجري بها دُموع قوارح عُيون المُشتاقين، ويُظهر بها صِدق آياتِ إشاراتِ العاملين:[70]

إنَّ الحكاياتِ تقوى في الإراداتِ — وفي الحكاياتِ ترغيبٌ لآياتِ
فيا لها عجبًا إذ صار واحدهم — يمشي على الماءِ مِن بين البريّاتِ
هذا عجيبٌ مِن الآياتِ، ظاهره — وليس ذا بعجيبٍ في الإشاراتِ
سقَى الإله كرامًا حيثما وُجِدوا — وكيف ما وُصفوا أحياء وأموات

= بلده، حتى نبغ واشتهر وسافر إلى الديار المقدّسة مرّتين، وكان يؤلّف وهو في السفينة. عرف بعدائه الشديد للاستعمار الفرنسي وحبّه للعالم الإسلامي وغيرته عليه. وكان له أثر بارز في قضيّة بلاده السياسيّة ونهضتها الإصلاحيّة. عكف على التدريس والتصنيف والوعظ والإرشاد إلى أن توفي في مسقط رأسه عن ستة وتسعين عامًا. وقامت شهرته في الفقه الإباضي على كتابه **شرح النيل وشفاء العليل** (ويكيبيديا).

(70) بسمة أحمد صدقي الدجاني، «دراسة مخطوطة كتاب «لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحبّ والمحبوب»: المؤلف والمنهج واستراتيجيات التحقيق،» الجزء الأوّل، **مجلّة جامعة غرناطة**، العدد 68 (2019)، ص 106.